المدينة الفاضـــلة

للدكتور جواد علي

والمدينة الفاضلة هي أصغر مجموعة بشرية كاملة تصورها الفيلسوف الفارابي فيلسوف المسلمين في كتابه : « آراء أهل المدينة الفاضلة »[1] وقد سمت مدينته هذه بهذا الاسم لتميزها بذلك عن المدينة الجاهلية والمدينة الفاسقة والمدينة المتبدلة والمدينة الضالة وغيرها من المدن التي ابتكرها عقل الفارابي ، وقد سجل أسماءها وخواصها في كتابه حيث ذكر خواص كل مدينة من هذه المدن وعلاماتها الفارقة وميولها من خير أو شر[2]

وكتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » في ذاته نوع من أنواع الإيتوبيا (طوبى) Utopie أراد فيه مؤلفه الفيلسوف المعلم الثاني[3] معالجة قضية من أشكل القضايا البشرية التي جابهها المسلمون ألا وهي قضية شكل الحكومة المثلى والنموذج الأعلى لنظام الحكم في هذا العالم كما فعل قبله الفيلسوف اليوناني الكبير أفلاطون في جمهوريته[4] أو كما فعل المعلم الأول الفيلسوف أرسطو في سياسته[1] وكما فعل فيلسوف المسيحية الأول القديس أوغسطين في كتابه مملكة الإله أو De Civitate dei وكما عالج نفس هذه المشكلة فلاسفة آخرون من القدماء والمحدثين ممن كانوا قبل عصر الفارابي أو ممن جاءوا من بعده بقليل أو كثير

وآراء الفارابي في هذه المدينة تكاد تنطبق على عالم أهل السماء أكثر من انطباقها على عالم أهل الأرض . هو فيلسوف ينظر إلى الحقائق بنظرات مجردة تختلف كثيراً عن وجهة نظر السياسي المحترف أو الإداري العملي إلى الأمور . هو مفكر له مثله العليا ويريد تطبيق مثله هذه على جميع شؤون الحياة . وقد أصاب الهدف في جهات ولم يصبه في جهات أخرى . ولقد كان شأنه في مدينته هذه كشأن توماس الأكويني في شرحه لكتاب السياسة لأرسطو[2] أو دانته الشاعر الإيطالي الفيلسوف في كتابه «المملكة» De monarchia[3] . حاول أن يوفق بين آراء أفلاطون وأرسطو، وبين كتاب الجمهورية وبين كتاب السياسة، وبين الحاكم والمحكوم . فكان يرى الفارابي في الخير الخير العام وفي السعادة السعادة العامة للحكام والأتباع معاً[4]

ويريد أن يوفق بين هذه الآراء وبين آرائه الشخصية ، وبين مقتضيات الزمن . ومقتضيات زمانه السياسية من أصعب الأشياء

(١) الطبعة التي نعتمد عليها في هذا الموضوع هي طبعة مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٣ هـ

(٢) راجع آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٩٠

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٤ وأما المعلم الأول فهو أرسطو

(٤) راجع كذلك كتابه (Politeia) حيث تجد آراء أفلاطون السياسية فيه .

(١) هكذا يطلق عليه العرب راجع كتابه (Politik) السياسية

(٢) راجع Prof. voigt Die Sozialen uto p. 54

(٣) Max horten die Philo des Islam p. 220 وكذلك Windelband Gech der Philo s, 265

(٤) Hitti history of the Arabs p. 371

أين أنا من القاهرة ؟ وأين القاهرة مني ؟

لقد سكتت الدنيا من حولي ، ولم يبق غير الأصوات الصواخب في أعماق الوجدان

أهو يوم أضعته ؟ لا ، والله ، بل هو عمر ضاع ، فليس من رؤية القاهرة عوض ، ولو انتفعت بالاعتكاف لتسجيل أعظم حديث يجود به القلب الخفاق

وهل استوفيت حظي من الحياة حتى أسأل عن نصيبي من القاهرة في مثل هذا اليوم ؟

صمت عن القاهرة في يوم يحرم فيه الصيام ، فما جزائي ؟

الجزاء هو الحرمان من رؤية وجهها الأصبح في يوم عيد ، وقد تجمعت الخلائق لشهود معترك الحسن والوجد في ساحتها الفيحاء ...

للقاهرة في كل يوم مذاق ، فكيف أصوم عنها في يوم العيد ، وهي فيه ألوان من الأذواق ؟ أمن أجل الغضب لقوم لا يغضبون لأنفسهم أصوم عن القاهرة في يوم عيد ، وهو فيها صنوف ، من الحسن الموصوف ؟

لقد ضحيت ما ضحيت لأغنم الثواب في التنويه بجمال بلادي ، فما ثوابي عند القاهرة ، وقد جعلت الصيام عنها في العيد من المحرمات ؟ الجواب عند روحها اللطيف .

زكي مبارك

إذ عليه أن يرضى عامة أصحاب الجدل والعقد وإلا جلب على نفسه السخط والنقمة وعليه أن يرضي ضميره وضميره ضمير فيلسوف عالم لا يؤمن إلا بالعلم ولا يثق إلا بالعقل ، وهذا ما لا يرضى معظم الناس طبعاً

وقد اتبع الفارابي في معالجة ضروريات مدينته والدوافع الطبيعية التي تدفع الإنسان إلى الاجتماع طريقة الفلاسفة الطبيعيين مبتعداً في كثير من الأحايين ، وعلى الأخص في القسم الأخير من كتابه على طريقة الفلاسفة المنطقيين[1] . تراه يشبه المدينة بجسم حي ثم يأخذ في شرح أهمية كل عضو من أعضاء هذه المدينة ، يفعل ذلك على نحو ما يفعل علماء الاجتماع في هذا اليوم[2] ، ويتوصل من ذلك إلى نظرية يضعها هي نظرية التفاوت بين قابليات الأفراد وبين قابليات العناصر البشرية وبين قابليات الحكام والأتباع[3] . وهي نظرية عامة يطبقها حتى على المعايير الأخلاقية والقواعد الأدبية والاجتماعية

يترأس مدينة الفارابي رئيس لا يرؤسه إنسان آخر أصلاً هو الإمام ، وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة ، وهو رئيس الأمة الفاضلة ، وهو رئيس المعمورة من الأرض كلها ، ولا يمكن أن تصير هذه الحال إلا لمن اجتمعت فيه بالطبع اثنتا عشرة خصلة قد فطر ذلك الرئيس عليها[4] . واجتماع هذه الخصال كلها في إنسان واحد عسر ، لذلك لا يوجد من حظي بهذه الفطرة إلا الواحد بعد الواحد والأقل من الناس[5] . فإذا اجتمعت الحكمة في شخص والصفات الأخرى في شخص كانا هما رأسين في هذه المدينة ، فإذا تفرقت الخصال في جماعة وكانوا متلائمين كانوا هم الرؤساء الأفاضل[6]

والحكمة في هذه المملكة حظ عظيم كما هي في مملكة أفلاطون ؛ ولكن حكيم أفلاطون حكيم زمني لا يأتيه الوحي ولا يعتمد على إلهام من السماء ؛ أما حكيم الفارابي فهو حكيم مسلم بكل معنى الكلمة يمثل زمان الفارابي خير تمثيل ، يأتيه الوحي وينزل عليه الإلهام[1] ؛ وله سلطان واسع في الحكم لا حد له هو أفلاطون في ثوب رسول كريم[2] . وفي هذه النقطة من البحث تجتمع العقلية الشرقية بالعقلية الغربية ، تجتمع وجهة نظر أفلاطون بالنسبة للفيلسوف الحكيم الحاكم بوجهة نظر الشرقيين ، وهي السيادة للفقه التي هي من ضروريات الحكم لدى الشرق ، وهنا تلتقي الفلسفة اليونانية بالفلسفة الإسلامية ، فيتكون من امتزاج الفكرين صورة جميلة على أحسن ما يكون

يظهر التأثير الإسبارطي واضحاً في جمهورية أفلاطون ، وفي « السياسة » لأرسطو ، وتظهر الروح الفردية بصورة جلية على الأخص في مملكة أفلاطون ؛ وفي آراء كل من الفيلسوفين انعكاس تام لآراء اليونانيين الخاصة بالنسبة لسياسة المدن حيث كانت حكومة المدن هي النموذج الأعلى لنظام الحكم لدى اليونانيين القدماء[3] . أما في مملكة الفارابي فالمثل الروماني بالنسبة لطريقة الحكم هو المثل الأعلى إذ يسيطر الرئيس الذي افترضه الفارابي على المعمورة الفاضلة كلها ، وفي حالة تعذر وجوده يقوم رئيسان أو ثلاثة أو أربعة أو غير ذلك ممن توفرت فيهم شروط الرآسة الفطرية والقابليات الطبيعية بنظام الحكم على طريقة تشبه طريقة حكم المسلمين في أوائل عهدهم وإلا هلكت المملكة أو المدينة وتاهت البشرية[4] . وإن تعذر وجود الرؤساء قام وكلاء عن الرؤساء بالأمر يدبرون شؤون الناس ويقومون بتنفيذ الأحكام والعدل بين الناس وتكون لهم سلطة عليا لا حد لها تستند على حق طبيعي شرعي افترضه العقل على الإنسان فرضاً

وعلى الرئيس الحاكم أن يسعى في جلب السعادة لأتباعه المرؤوسين ؛ ومتى حصل ذلك ، وكانت الخصال التي رآها الفارابي قد توفرت فيه كان ذلك الرئيس هو الرئيس الفاضل ، وكانت المدينة هي المدينة الفاضلة ولا يهم الفارابي بعد ذلك شكل الحكم إذ هو فيلسوف يغني في السعادة ويرى الخير كل الخير فيها على

(١) راجع تاريخ الفلسفة في الاسلام ، تأليف دي بور ص ١٥٠
(٢) نفس المصدر ص ١٥٠ (ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة)
(٣) راجع ص ٨٠ ، ٩٦ ، ١٠٣ من كتاب آراء أهل المدينة
(٤) المدينة الفاضلة ص ٨٦
(٥) نفس المصدر ص ٨٨
(٦) ص ٨٩

(١) المدينة في بحث « القول في الوحي ورؤية الملك » وما بعد
(٢) دي بور « ترجمة أبو ريدة » ص ١٥١
(٣) Georg Lelllinck. Allgemeine staatslehre p. 297
(٤) Haunt Geschichte der Araber Bd. 2 p. 361